الآثار السلبية للحروب على العمران البشرى

أ.د / عبدالغنى عبدالفتاح زهرة

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية اللغة العربية بالزقازيق – جامعة الأزهر

ملخص البحث:

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالبيئة وعمارة الأرض، وأوصى بزراعتها لما للزراعة من دورها فى الحفاظ على البيئة من التصحر والجفاف وغير ذلك.

وشبه القرآن الأرض المزروعة والبساتين بالجنة، وأعدها من نعم الله على الإنسان .قال تعالى(:وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً .كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً)

سورة الكهف : آية (33–32 وقال تعالى) :كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُون .وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ .وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) سورة الدخان :آية 27–25

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمارة البيئة وزراعتها فقال":إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة– نخلة صغيرة–فإن استطاع أن لايقوم حتى يغرسها فليغرسها)"المنتخب من مسند عبد بن حميد – حديث رقم 1216

وهذا يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على عمارة البيئة وزراعتها حتى لحظة قيام الساعة .وقال صلى الله عليه وسلم موصيا أصحابه بعدم ترك الأرض بغير زراعة فقال":إذا كانت لأحدكم أرض فليمنحها أخاه أو ليزرعها)"سنن الترمذى – حديث رقم.(1384) .

وكان من عقاب الله لعباده إذا ما حادوا عن الطريق المستقيم وخالفوا شرائع الله أن تتعرض بيئتهم وأرضهم للحرق والتدمير .قال تعالى) :إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .وَلا يَسْتَثْنُونَ .فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ .فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)(سورة القلم :آية.20 –17)

وقال تعالى(:أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (سورة البقرة :آية 266) .

وسار الصحابة على نهج نبيهم في الحفاظ على العمران البشرى، وخاصة فى أوقات الحروب فهذا هو أبوبكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى قادة جيوشه بالحرص على البيئة ، وما بها من زرع وعمارة ، فقال للقائد أسامة بن زيد وجيشه أثناء توجههم للقتال): يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ,ولا امرأة ، ولا تعقروا

DOI:10.12816/0036524

نخلاً ولا تحقروه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ،فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) (تاريخ الطبرى – ج1 ص230)

وإذا كان السلام يساعد فى الحفاظ على البيئة ومكوناتها إلا أن الحروب أحيانا ما يكون لها قواعد مخالفة لهذا النهج الرباني والنبوى، وتجبر ظروف الحرب أحياناً أحد الطرفين أو كليهما للإضرار بالعمران البشرى بقصد أو بغير قصد ,وتلقى بآثارها السلبية وظلالها االمدمرة على الإنسان والبيئة، ولذلك كانت الحرب فى الإسلام للضرورة القصوى وليست ترفاً أو رغبة فيها ,وسنورد خلال البحث بعض الحروب التى أضرت بالبيئة وبالعمران البشرى ضرراً مباشراً ,وثار حولها جدل كبير ,واستمرت آثارها فترة من الزمن ,مثل غزوة بنى النضير ,وحروب المسلمين مع الكاهنة فى بلاد المغرب ,وثورة أهل الربض بقرطبة ,لتكون أمثلة لأثر الحروب السئ على العمران .وقد حاول المسلمون معالجة هذه الآثار السيئة قدر المستطاع ,مستندين فى ذلك إلى مبادئ التشريع الإسلامى التى أقرها الشرع لحماية البيئة والعمران ,والحفاظ عليهما .وهو ما سنعرفه إن شاء الله من خلال صفحات البحث.

Negative Effects of Wars on Environment

Prof. Dr. /Abdul Ghany Abd El Fatah Zahra
Head of Islamic History and Civilization
Arabic Language Faculty, El-AzharUniversity, Zagazig

Summary

Islam has shown great care for environment and earth development, and has advised that earth should be farmed as for the role of agriculture in preventing drought and desertification.

Quran has likened farmed lands and gardens to the paradise. In addition, they have been considered as one of Allah's blessings on human beings."And put forward to them the example of two men; unto one of them We had given two gardens of grapes, and We had surrounded both with date-palms; and had put between them green crops (cultivated fields etc.).

Each of those two gardens brought forth its produce, and failed not in the least therein, and We caused a river to gush forth in the midst of them." Al-Kahf, 32-33. And he said "How many of gardens and springs do they [Fir'aun's (Pharaoh) people] left. And green crops (fields etc.) and goodly places. And comforts of life wherein they used to take delight" Ad-Dukhan 25-27

The Prophet Mohamed exhorted saving and developing the environment by saying "If the end hour came while one of you has a seed in his hand, then plant it". He even insisted on not leaving a land without agriculture by saying "If any of you had a land, then either plant it or give it to your brother"

One of Allah's way to punish those who deviated from his way and chose to be corrupt is to destroy their lands."Verily, We have tried them as we tried the people of the garden, when they swore to pluck the fruits of the (garden) in the morning,Without saying: Insha' Allah (If Allah will).Then there passed by on the (garden) something (fire) from your Lord at night and burnt it while they were asleep." Al-Qalam 17-20. He also said, "Would any of you wish to have a garden with date-palms and vines, with rivers flowing underneath, and all kinds of fruits for him therein, while he is striken with old age, and his children are weak (not able to look after themselves), then it is struck with a fiery whirlwind, so that it is burnt? Thus does Allah make clear His Ayat (proofs, evidences, verses) to you that you may give thought" Al-Baqarah 266.

Moreover, the prophet's companions has kept his orders of preserving environment, especially in times of wars. For example, Abu Bakr the first Khalifa after the prophet ordered the leader of the army back then, Usama ibn Zaid, to preserve the environment constructions by saying "I exhort you all to do the following

ten things:do not betray, do not be extremists, and do not play false. Do not amputate and never kill a young child, nor an elderly nor a woman. Never cut a plant nor a fruitful tree and never destroy it. Never slay a cattle unless for food. And you will see some people who has left the world and stayed in a monastery, let them and never harm them"

Peace is the condition to keep the environment preserved, however, war can have devastating effects on the environment. Sometimes, war even obliges one of the war parties to harm human construction intentionally or not, and leaves its negative and devastating effects on the humanity and environment. As a result, war in Islam has always been for the ultimate necessity and not for fun or desire. Some wars are mentioned in the paper, which had direct devastating effects on the environment and were hugely debated as the Battle of BanuNadhir, the wars between Muslims and Kahina in the western Arabic lands, and the revolution in Cordoba. Muslims tried to cure the effects of these wars as possible, based on the teachings of Islam and orders stated for them to preserve Environment and Construction. In this paper, we will show more what the orders and teachings are.

البحث:

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالبيئة وعمارة الأرض،وأوصى بزراعتها لما للزراعة من دورها فى الحفاظ على البيئة من التصحر والجفاف وغير ذلك .

وشبه القرآن الأرض المزروعة والبساتين بالجنة، وأعدها من نعم الله على الإنسان.قال تعالى:**(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً)**[1]وقال تعالى:**(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُون. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)**[2].

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمارة البيئة وزراعتها فقال:"إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة –نخلة صغيرة–فإن استطاع أن لايقوم حتى يغرسها فليغرسها"[3].

وهذا يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على عمارة البيئة وزراعتها حتى لحظة قيام الساعة.

وقال صلى الله عليه وسلم موصيا أصحابه بعدم ترك الأرض بغير زراعة فقال:"إذا كانت لأحدكم أرض فليمنحها أخاه أو ليزرعها"[4].

وكان من عقاب الله لعباده إذا ما حادوا عن الطريق المستقيم وخالفوا شرائع الله أن تتعرض بيئتهم وعمرانهم وأرضهم للحرق والتدمير. قال تعالى: **(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)** [1] .

---

(1) سورة الكهف : آية 32–33.

(2)سورة الدخان: آية 25–27.

(3)المنتخب من مسند عبد بن حميد – حديث رقم 1216 .

(4)سنن الترمذى – حديث رقم 1384.

وقال تعالى:(**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**)[2].

وسار الصحابة على نهج نبيهم في الحفاظ على العمران البشرى البيئة،وخاصة فى أوقات الحروب فهذا هو أبوبكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى قادة جيوشه بالحرص على البيئة ، وما بها من زرع وعمارة ، فقال للقائد أسامة بن زيد وجيشه أثناء توجههم للقتال :(يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولاتغدروا ، ولا تمثلوا، ولاتقتلوا طفلاْ صغيراْ، ولاشيخاْ كبيراْ, ولاامرأة ، ولاتعقروا نخلاْ ولا تحقروه،ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراْ إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ،فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[3].

إلا أن الحروب أحيانا ما يكون لها قواعد مخالفة لهذا النهج الرباني والنبوى ، وتجبر ظروف الحرب أحياناً أحد الطرفين أو كليهما للإضرار بالعمران والبيئة بقصد أو بغير قصد, وتلقى بآثارها السلبية وظلالها المدمرة على عمارة الإنسان والبيئة ، ولذلك كانت الحرب فى الإسلام للضرورة القصوى وليست ترفاً أو رغبة فيها,وسنورد فيما يلى بعض الحروب التى أضرت بالعمران البشرى والبيئة ضرراً مباشراً ، وثار حولها جدل كبير، واستمرت آثارها فترة من الزمن ، لتكون أمثلة لأثر الحروب السئ على البيئة .

غزوة بنى النضير 4 هـ

عندما توجه الرسول صلى الله عليه وسلم لحلفائه يهود بنى النضير يستعين بهم فى دفع دية رجلين من بنى عامر قتلهما أحد الصحابة وهو عمرو بن أمية الضمرى ، ولكن اليهود _كدأبهم وسجيتهم على مدار التاريخ_ تآمروا لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش ليطرح عليه صخرة من أعلى الجدار الذي كان يجلس الرسول صلى الله عليه وسلم بجواره، ولكن الله أوحى لنبيه بما تآمر عليه اليهود، فمضى عائداً إلى المدينة، موهماً اليهود أنه ماض لقضاء حاجة، وعندما طال انتظار الصحابة الذين كانوا معه له عادوا إليه ليسألوه عن السبب فى تركهم، أعلمهم بخبر المؤامرة،ثم أرسل إليهم محمد بن مسلمة ليقول لهم :(إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتهم عشراً ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه)[4].

---

(1)سورة القلم: آية 17– 20.

(2) سورة البقرة: آية 266.

(3)تاريخ الطبرى – ج3 ص226.

(4) سيرة ابن هشام – ج1 ص114, المقريزى– إمتاع الأسماع– ج1 ص150, السهيلى– الروض الأنف– ج6 ص90.

فرد زعيمهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنا لا نخرج فليصنع ما بدا له. وكان ذلك بتحريض من المنافقين بزعامة عبد الله بن أبى فتوجه الرسول مع أصحابه لحصارهم, واستمر الحصار خمسة عشر يوما، وكانت البيئة– بطبيعة الحال– عرضة للدمار والتخريب أثناء الحصار، إذ إن مساكن بنى النضير كانت محاطة بالحصون بالإضافة إلى كثرة النخيل المحيط بها. واستخدم اليهود حصونهم ونخيلهم فى رمى المسلمين بالنبال حتى وصل النبل إلى القبة التى يقيم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الرسول بقطع نخيلهم وحرقه ليحقق بذلك هدفين : الأول حرمانهم من المورد الاقتصادى الذين يعيشون عليه، فيتحسرون عندما يرون النار تشتعل بمحولاتهم وتمرهم ، وما زادهم حسرة أن الذى قام بهذا الحرق والقطع عبد الله بن سلام – حبر اليهود قبل إسلامه –لذلك راحوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبقى لهم على نخيلهم فأبقاه لهم ، والهدف الثانى هو كشف مواقعهم التى يتحصنون فيها أثناء القتال, وبالتالي إجبارهم على الاستسلام, وهو ماحدث بالفعل بعد خمسة عشر يوما ، وقبلوا بالشروط التي وضعها لهم المسلمون مقابل جلائهم سالمين ، وأمانهم على دمائهم ، وماحملت إبلهم إلا الحلقة– أدوات الحرب–.

ومن الملفت للنظر أن اليهود كانوا يعرفون جيداً تعاليم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم بشأن احترام البيئة والحفاظ عليها, وعمارة الأرض, فقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم عندما أمر بقطع النخيل: يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها؟.[1]

كما أن بعض المسلمين دخل في نفوسهم حرج من هذا الفعل، وضاقت صدورهم به، لأنهم كانوا منهيين عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق, فاحتاج هذا الفعل إلى بيان خاص من الله تعالى في قوله:**(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)**[2].

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن هذا الفعل أو تأييده, ولكننا نريد أن نشير إلى أن ظروف الحرب غالباً ماتلقى بظلالها وآثارها على البيئة, ولم يكن هذا من جانب المسلمين فقط في هذه الغزوة, وإنما أراد اليهود أن يكون لهم نصيبهم أيضاً في التدمير والتخريب ، فعندما رضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووافقوا على الجلاء من المدينة ،قاموا بتخريب وتدمير بيوتهم وعمرانهم حتى لا يسكنها المسلمون بعدهم ، وهذا قمة الحسرة والغيظ مما حدث لهم، ولعل هذا يذكرنا بما فعلوه في سيناء منذ عدة سنوات عندما خرجوا منها بعد معاهدة الصلح 1979م، فقاموا بهدم مستعمراتهم، ورفضوا قبول التعويضات حتى لا ينتفع بها المسلمون .

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بعلاج الآثار التي تركتها غزوة بني النضير على البيئة وعمارة الأرض، فأعاد غرس النخيل، وكان يزرع تحته ما يمكن زرعه من القمح والشعير، لتعود هذه الديار بأفضل

(1) تفسير الألوسى – ج17 ص458, الفخر الرازى– مفاتيح الغيب– ج15 ص473.
(2)سورة الحشر: آية 5.

ما كانت عليه ، ولتمحى آثار التخريب والتدمير الذي عاشته البيئة جراء هذا الحرب والحصار، ولتنتظر البيئة حدثا آخر يلقى بظلاله عليها.

حروب المسلمين مع الكاهنة في بلاد المغرب

استمرت حروب المسلمين لفتح بلاد المغرب سبعين عاما تقريبا إلا أن حروبهم مع الكاهنة كانت أكثر مراحل هذه الحروب تأثيرا على البيئة وأشدها ضررا عليها.

فبعد أن استقر أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان بعد القضاء على عبدالله بن الزبير سنة 73هـ/692م رأي أن يواصل الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب، وتثبيت أقدام المسلمين في إفريقية، وخاصة أن استشهاد عقبة بن نافع وزهير بن قيس ما زال ماثلاً في الأذهان، ولم يغب عن بال أشراف المسلمين، الذين كانوا يطالبون الخليفة دائماً بأن يرسل إلى إفريقية من يسد ثغرها، ويصلح أمرها.

واختار الخليفة رجلاً من خيرة رجال بني أمية، وهو حسان بن النعمان الغساني، وجعله على رأس جيش من أربعين ألف رجل، وأطلق يده في أموال الدولة بمصر لينفق منها على حملته، مما يدل على عزم الخليفة السيطرة على بلاد المغرب، وضمها إلى بلاد الإسلام[1].

وسار حسان بجيشه إلى مصر، ومنها إلى القيروان فوصلها سنة 74هـ/693م فأصلح شؤونها وشؤون المسلمين بها، واتخذها مركزاً لعملياته العسكرية، ووضع حسان خطته العسكرية التي تقوم على لقاء أعدائه من الروم والبربر منفردين حتى يسهل القضاء عليهم، واحداً بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده، وذلك يستدعى منه سرعة الهجوم على أحد الطرفين قبل أن يستنجد بالآخر، ويصل لمساعدته.

واستقر رأيه على أن يبدأ بالروم البيزنطيين ليقضى علي كل أثر لهم في إفريقية، وكانت عاصمتهم قرطاجنة بإفريقية، وبها جمع كبير من الروم وحلفائهم من نصارى إفريقية، فسار إليهم، ووقع بينهم قتال شديد انتهي بهزيمة الروم، واقتحم المسلمون المدينة بعد أن أسروا الكثير من البيزنطيين، وفر من نجا منهم إلى مراكبهم في البحر، فحملتهم إلى صقلية[2].

وهنا بدأت أضرار هذه الحرب على البيئة فقد رأي حسان أن يخرب الميناء حتى لا تعود مراكب الروم إلى البلاد مرة أخرى، وبذلك يكون قد قضى على كل أمل للبيزنطيين في العودة إلى إفريقية عن طريق قرطاجنة، ثم تتبع فلولهم في المدن الساحلية غرب إفريقية، فاستولي على بنزرت وبونة وباجة، وطرد الروم منهما، وبهذا أخرج من الميدان عنصراً مهمًا وهو العنصر البيزنطي.

وكان البربر قد التفوا حول قيادة امرأة منهم تعرف بالكاهنة من قبيلة جراوة الزناتية، منتهزين ضعف موقف المسلمين في إفريقية بعد استشهاد زهير بن قيس، وأخذت تطالب بدم كسيلة، وتدعو لطرد المسلمين من البلاد، وتبعها جمع كبير من البربر[3].

وبعد أن أراح حسان جنده بعض الوقت نهض للقضاء على مقاومة البربر، ولم تكن لديه أخبار كافية عن

(1) د. أحمد مختار العبادي – في تاريخ المغرب والأندلس – ص43.

(2) ابن خلدون – العبر – ج1 ص1572.

(3) الثعالبي – تاريخ شمال افريقيا– ص61.

الكاهنة وأتباعها، إذ كان يظن أن إخضاعهم لن يكلفه إلا عناءاً قليلاً، ولكن الكاهنة كانت ذا دهاء وكياسة وتدبير، ولها زعامة روحية على البربر لادعائها التكهن بالغيب، ولذلك لقبت بالكاهنة.

وهنا قامت الكاهنة بأكبر تدمير للبيئة والعمران خلال هذه المرحلة من الحروب ، فعندما بلغها تقدم حسان بجنده إليها أمرت بتخريب الأرض في طريقهم، فقطعت الأشجار، وخربت الزروع، وهدمت قلعة باغاية حتى لا يعتصم بها المسلمون، إلا أن هذا لم يثن حسان وجنده عن التقدم لقتالها، ودارت بينهم المعركة في أحواز جبال الأوراس، بالقرب من موضع استشهاد عقبة بن نافع، في مكان يسمى وادي نهر بلي، وتكاثر البربر على المسلمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين، وانسحاب حسان بمن تبقي معه إلى إقليم برقة، بينما وقع عدد من أشراف العرب في أسر الكاهنة[1].

وبذلك فقد العرب إفريقية للمرة الثالثة في نحو عشر سنوات، مرة بعد استشهاد عقبة، ومرة بعد استشهاد زهير بن قيس، ومرة بعد هزيمة حسان على يد الكاهنة، ولو حدث هذا الأمر مع قوم غير المسلمين لانصرفوا عن إفريقية آيسين من فتحها، فقد تكبدوا في سبيلها خسائر فادحة وهزائم شديدة، واستشهد آلاف من خيرة المجاهدين، ولكن المسلمين في هذا العصر كانوا رجالاً ذوى إيمان وقوة وبسالة وحزم وعزم، وما كانت الخسائر ولا الأهوال لتردهم عما قصدوا إليه من نشر دينهم وإعلاء شأنه[2].

وكانت الكاهنة تعلم هذا الإصرار عند المسلمين، فأرادت أن تفقدهم الأمل في إفريقية والمغرب، فقامت بتخريب البلاد وقطع الأشجار في مساحات كبيرة، وأمرت بهدم الحصون، حتى قيل إنها خربت مسيرة ألفي ميل ظناً منها أن العرب يقصدون المغانم والأسلاب، فإذا وجدوا الأرض خراباً آيسوا منها[3].

إلا أن هذه السياسة أثارت الرعب والفزع بين سكان البلاد وخاصة البربر البرانس المستقرين، والذين كانوا في خلاف وصراع دائم مع البربر البتر (البدو) الذين يناصرون الكاهنة، ووصلت هذه الأخبار إلى حسان بن النعمان الذي سره بطبيعة الحال هذا الصراع، لأن فيه إضعاف للبربر.

وقد أرسل حسان إلى الخليفة عبدالملك بن مروان في دمشق يبلغه بما حدث، وينتظر جوابه في المكان الذي يقيم فيه قرب برقة، وأصبح يعرف بقصور حسان، فأرسل الخليفة إليه الإمدادات سنة 79هـ/698م، وانضم إليه بعض البربر الذين اعتنقوا الإسلام، أو المتذمرين من سياسة الكاهنة، وبث حسان العيون في إفريقية، يتعرف بها على أماكن تجمع البربر وقواتهم، فأخبروه بتفرق البربر، واختلال نظامهم[4].

ولما وقف حسان على هذه الأخبار تأهب للزحف، وسار بجيشه للقاء الكاهنة وجيوشها، فالتقي بهم بالقرب من صفاقس، واشتد بينهما القتال، وعظم البلاء حتى ظن الناس أنه الفناء، وانجلت المعركة عن انتصار المسلمين، وهزيمة الكاهنة، ففرت بقواتها إلى المغرب الأوسط، وتحصنت بمواطن قبيلتها جراوة في جبال الأوراس، وطاردها حسان بجيشه، وكان اللقاء الحاسم بينهما في مكان يعرف ببئر الكاهنة في جبال الأوراس، وانتصر المسلمون، وقتلت الكاهنة وعدد كبير من قواتها، وتفرق من بقي منهم في الجبال[5].

وانتهز الروم الصراع بين المسلمين والبربر، وأرسلوا إلى إفريقية أسطولاً برئاسة البطريق يوحنا، ونزلت قواته

---

(1) الرقيق القيرواني – ص25.

(2) د. حسين مؤنس – تاريخ المغرب – ص102.

(3) ابن الأثير – الكامل – ج1 ص709.

(4) الثعالبي – ص74.

(5) ابن خلدون – العبر – ج1 ص1572، د. عبدالهادي التازي – الوسيطفي تاريخ المغرب – ج1 ص141.

في مدينة قرطاجنة حيث فاجأت الحامية الإسلامية فقتلتها، واستردت المدينة، فاتجه إليها حسان بجيشه واقتحمها، ففر البيزنطيون في مراكبهم[1].

وهنا حدث تدمير آخر للبيئة ولكن من جانب المسلمين حيث رأي حسان بن النعمان أن يقضى على قرطاجنة قضاء نهائياً حتى لا يعود الروم إليها مرة أخرى، فخربها تماماً، وقطع القناة التي توصل الماء إليها، ولكنه عوض إفريقية عنها خيراً ببناء مدينة تونس التي ستحل محلها، وتصبح من أهم المواني الإسلامية في البحر المتوسط[2].

وهنا نلاحظ أمرا مهمًّا ، وهو أنه كلما فرضت ظروف الحرب على المسلمين القيام بتدمير لمدينة أو تخريب لزرع قاموا بعد الحرب بزراعة ما خرب ، أو مساعدة أهله على ذلك, وإعادة بناء المدينة التى دمرت,أو بناء مدينة بدلا منها.

ومن حرص المسلمين فى هذه الحرب على إعادة تعمير الأرض وزراعتها, وتعويض أهلها مما حدث لهم على يد الكاهنة قام حسان بن النعمان بتوزيع أراضي البيزنطيين على الفلاحين من أهل البلاد لزراعتها وإعادة العمران إلى البلاد، وتنظيم الخراج، وتعريب الدواوين، وأعطي للبربر حق المساواة الكاملة مع العرب، وهذه السياسة أدت إلى إقبال البربر على اعتناق الإسلام، وانتشار اللغة العربية التي تعلمها الشعب المغربي للأخذ بأسباب الحضارة الإسلامية.

وجني حسان ثمار سياسته الحسنة في بلاد المغرب، فقد أصبح ضمن قواته إلى جانب العرب اثنا عشر ألفاً من البربر، وهذا يعني دخولهم مع أسرهم في الإسلام ؛ ولذلك عهد حسان إلى ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين بتعليمهم القرآن وأصول الإسلام، وتعليمهم اللغة العربية، كما علمهم اختلاطهم بالعرب العادات والتقاليد العربية، وبذلك يعد حسان بن النعمان أول من أعطى المغرب طابعاً عربياً إسلامياً[3].

ثورة أهل الربض[4] بقرطبة 202هـ/ 817م

شهدت هذه الثورة تخريب وتدمير للبيئة والعمران فى بلاد الأندلس وخاصة فى قرطبة وضواحيها, فعندما تولى الحكم بن هشام مقاليد الإمارة في الأندلس سنة 180هـ(796م) وجد نفوذ الفقهاء كبيراً، وعظم شأنهم في أيام أبيه، وتجاوزوا حدودهم ، فحاول الحكم أن يقيد سلطتهم، وينتزع منهم بعض ما كانوا يتمتعون به في أيام أبيه، ولم يعد يستشيرهم في أمور الدولة لكف أيديهم عن التدخل في شئونه، وشئون دولته، فانقلبوا عليه، وسخطوا من تصرفاته، واتهموه بكثير من الصفات السيئة مثل الفسق والفجور، وبالغوا في ذلك لإثارة الناس عليه، مستغلين نفوذهم الروحى، وقربهم من الناس.

ولم يتوقف الأمر عند مجرد تحريض الناس بل شارك بعض الفقهاء في مؤامرة لعزل الأمير والغدر به سنة 189هـ/ 805م ولكن انكشفت المؤامرة، وتم القبض عليهم، وقتلهم، ومنهم الفقيه يحيى بن مضر، وأبوكعب بن

(1) ابن عبدالحكم –فتوح مصر والمغرب– ص175.
(2) ابن عذاري –البيان المغرب– ج1 ص35.
(3) ابن عذاري – ج1 ص43.
(4) الربض كلمة عامة تعني الضاحية أو الحي، وكان يقع جنوب قرطبة في الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير، وعندما أعاد الأمير هشام الرضا بناء الحسر على النهر ليربط قرطبة بأرباضها، امتد العمران إليه، وأصبح آهلا بالسكان من مختلف الطوائف.د.العبادى – ص121.

عبدالبر، وموسى بن سالم الخولاني وغيرهم[1].

وزادت هذه الحادثة الجفاء بين الأمير والفقهاء ومن معهم من الناس، وخاصة سكان حي الربض جنوب قرطبة، وكانوا من المولدين (أى من أب عربى وأم أسبانية) الذين يحسون بالظلم لعدم مشاركتهم في السلطة، وأخذوا يتربصون بالأمير ويحسبون عليه كل تصرف ، لإثارة الناس ضده ، مثل إسناده بعض الشئون المالية وجمع المغارم لأحد المعاهدين النصارى بالأندلس، فأنكروا عليه ذلك مع أن الخلافة العباسية ومن بعدها الفاطمية في مصر كانوا يستعينون عادة بأهل الذمة من اليهود والنصارى في الدواوين المالية، ولكن الفقهاء هناك لايريدون أن يتركوا أي عمل للأمير دون استخدامه في إثارة الناس عليه[2].

وأدى هذا الاحتقان والشحن المستمر لأهل الربض ضد الأمير إلى قيامهم بثورتهم الكبرى سنة 202هـ/ 818م بسبب حادث بسيط، ولكنه الشرارة التي أشعلت مستودع الغضب المخزون في نفوسهم، وملخصه أن جندياً من حرس الأمير ذهب إلى حداد بحي الربض ليصلح سيفه، فتباطأ في إصلاحه، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور إلى جدال عنيف، فاستل الجندي سيفه وقتل الحداد، فغلت مراجل غضب أهل الربض، وانفجرت براكين كراهيتهم للأمير، وكأنما كانوا ينتظرون مثل هذا الحدث، فهبوا مرة واحدة، وقتلوا الجندي، وأغلقوا المتاجر والحوانيت، واتجهوا إلى قصر الإمارة عبر الجسر، وهم يهتفون بخلع الأمير، ثم حاصروا القصر يريدون اقتحامه، وقتل الأمير باعتباره المسئول عن ذلك الحادث[3].

وتحصن الأمويون وأتباعهم في القصر، وتولي الدفاع عنهم قائدان من أعظم القادة هما عبدالكريم بن عبدالواحد، وفطيس بن سليمان، بينما أظهر الأمير الحكم شجاعة نادرة، فلم يفقد أعصابه، وقابل النبأ بكل هدوء، وأمر الخادم بأن يحضر له قارورة الغالية وهي عطر ليتطيب به، فدهش الخادم من هذا الطلب، وكان ينتظر أن يطلب منه سيده سلاحاً أو درعاً، وقال له: أهذا يوم طيب يا سيدي؟ فقال له الأمير: اسكت لا أم لك، هذا يوم وطنت نفسي فيه على الموت أو الظفر بعدوي، فأردت أن يعرف رأس الحكم من بين رؤوس من يقتل معه[4].

وكان لابد للحكم في مثل هذا الموقف أن يلجأ إلى ذكائه ودهائه، فاستدعي قائدين من خيرة رجاله الذين يثق فيهم، وهما ابن عمه عبيدالله بن عبدالله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر، ومعهما فرقة من الجند، وطلب منهم الاجتهاد في شق طريقهم إلى الربض، وإشعال النار فيه، ونجح الجند في عبور النهر، والثوار لا يشعرون بهم لاشتغالهم بالقتال، وأشعلوا النار في الربض، فلما رأي الثوار النار مشتعلة في بيوتهم ومتاجرهم وحدائقهم، عادوا مهرولين بدون نظام لإنقاذ ذويهم وأموالهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم، فقتلوا منهم عدداً كبيراً، وتم القبض على ثلاثمائة من رؤوس الفتنة، فقتلوا وصلبوا على نهر الوادي الكبير صفاً واحداً من المرجع إلى المصارة[5].

وعندما استحر القتل في أهل الربض صاحوا بالطاعة وطلب الأمان، فأشار بعض الوزراء على الأمير بألا يقبل ذلك منهم، وأشار بعضهم إلى قبول ذلك منهم، وقال: إن منهم المسيء والمحسن، فأخذ برأي من أشار

(1) ابن عذارى – ص71، المقري – نفح الطيب – ج1 ص270.
(2) ابن الخطيب – أعمال الأعلام – ص15.
(3) د. العبادى – ص123، ابن الأبار – الحلة السيراء – ص44 تحقيق الدكتور حسين مؤنس.
(4) أخبار مجموعة – ص119.
(5) ابن عذارى – ص77.

بالصفح عنهم، ولكنه طلب منهم الخروج من قرطبة بل ومن الأندلس[1].

وهكذا كان لهذه الثورة أثر كبير على البيئة ، فكانت سببا في تدمير حي بأكمله وخرابه من سكانه وعمرانه وزراعاته.

وقد فر عدد كبير من الثائرين في بلاد الأندلس، فعزم الحكم على تتبعهم وقتلهم لعدم إثارة الفتن في مناطق أخرى، فنصحه بعض أصحابه بالعفو عنهم، وذكره صنع الله فيهم، فكف عنهم، وطلب من ولاته عدم التعرض لهم، وعف الحكم عن أموالهم وحرمهم، فتفرقوا في جميع أهل الأندلس، وانتهت مقاومتهم، وأمر الحكم بهدم الربض وحرث أرضه وزراعتها، وهذا ماخفف من آثار هذه الثورة على البيئة, ولم يجرؤ أحد من خلفائه على إقامة مبان في هذه المنطقة حتى أواخر القرن الرابع الهجري تنفيذاً لوصيته، وأطلق عليه الحكم الربضى بسبب ذلك[2].

وغادر عدد كبير من الربضيين الأندلس، فذهب بعضهم إلى بلاد المغرب، ونزلوا بمدينة فاس التي أسسها إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن أمير الأدارسة في المغرب سنة 196هـ/ 811م، وأطلق على المنطقة التي أقاموا بها في فاس عدوة الأندلسيين، ولكن طباع الربضيين غلبت عليهم، ودخلوا في عداوات ومنافسات مع القرويين، استمرت فترة طويلة، حتى اندمجا وصارا شعباً واحداً[3].

واتجه الفريق الآخر من الربضيين بحراً إلى مدينة الإسكندرية،وكانت أحوال مصر حينذاك مضطربة، والثورات مشتعلة في كل مكان بسبب الصراع بين الأمين والمأمون على الخلافة، وانشغالهما عن مصر، فانتهز الربضيون الفرصة، وسيطروا على الإسكندرية وأسسوا بها إمارة أندلسية مستقلة استمرت أكثر من عشر سنوات حتى استتب الأمر للمأمون، فأرسل قائده عبدالله بن طاهر إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة 212هـ/828م، وبعد إقرار الأمن في الفسطاط توجه إلى الإسكندرية فحاصرها, حتى طلبوا الأمان فأجابهم على أن يتركوا الإسكندرية، فاتجهوا بمراكبهم إلى جزيرة إقريطش (كريت) فسيطروا عليها، وأسسوا بها دولة لهم استمرت مائة وخمسة وثلاثين سنة، ونشروا فيها الإسلام، وبنوا فيها قاعدة لحكمهم هي مدينة الخندق، حتى قضى على دولتهم الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني سنة 349هـ/ 960م[4].

ولعل ما حدث بعد ثورة أهل الربض بقرطبة يوضح لنا طبيعة هؤلاء السكان المشاغبة، واعتيادهم على العنف والشغب وإثارة الفتن، وهو ما حدث منهم في كل منطقة نزلوا بها، حتى وصفهم ابن عذارى بقوله: (إنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواحي الدنيا إلا وتغلبوا عليها، واستوطنوها على قهر من أهلها) [5].

ومن خلال هذه النماذج نرى أن الحروب تترك أثرها السيئ على البيئة سواء بقصد أو بغير قصد ، ولعل هذه الآثار زادت فى العصر الحديث بعد التوصل لأسلحة الدمار الشامل التى تدمر البيئة تدميراً شاملاً ، وهو ما عانت منه بعض البلاد مثل اليابان ، وهذا ما يجعلنا نطالب المنظمات والهيئات الدولية بتحريم استخدام هذه الأسلحة ، ونشر ثقافة السلام فى العالم.

والله ولى التوفيق

---

(1) ابن القوطية – ص69.

(2) ابن عذارى – ص77، د. العبادى – ص123.

(3) ابن أبي زرع – روض القرطاس –ص40 وما بعدها.

(4) د. إبراهيم العدوي – الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم – ص107، 110 (القاهرة 1958م). د. السيد سالم – تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي – ص138 وما بعدها (الإسكندرية 1982م).

(5) البيان المغرب – ص77.